قال رحمه الله تعالى :

[فصلٌ (خصائص رسول الله ﷺ) ؛ في ذكر شيء من خصائص رسول الله ﷺ التي لم يشاركه فيها غيره ؛ قد أكثر أصحابنا وغيرهم من ذكر هذا الفصل في أوائل كتب النكاح من مصنفاتهم تأسياً بالإمام أبي عبد الله صاحب المذهب ، فإنه ذكر طرفاً من ذلك هنالك ، وحكى الصيمري عن أبي علي بن خيران أنه منع من الكلام في خصائص رسول الله ﷺ في أحكام النكاح وكذا في الإمامة ، ووجهه أن ذلك قد انقضى فلا عمل يتعلق به وليس فيه من دقيق العلم ما يقع به التدريب ، فلا وجه لتضييع الزمان برجم الظنون فيه . قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح بعد حكايته ذلك : "وهذا غريب مليح " والله أعلم . وقال إمام الحرمين: قال المحققون : ذكر الخلاف في مسائل الخصائص خبط لا فائدة فيه ، فإنه لا يتعلق به حكم ناجز تمس الحاجة إليه ، وإنما يجري الخلاف فيما لا نجد بدًّا من إثبات حكم فيه ، فإن الأقيسة لا مجال لها ، والأحكام الخاصة تُتَّبع فيها النصوص ، وما لا نصَّ فيه فالخلاف فيه هجوم على الغيب من غير فائدة . وقال الشيخ أبو زكريا النووي : الصواب الجزم بجواز ذلك ، بل باستحبابه ، ولو قيل بوجوبه

لم يكن بعيداً إن لم يمنع منه إجماع ، لأنه ربما رأى جاهل بعض الخصائص ثابتاً في الصحيح فيعمل به أخذاً بأصل التأسي ، فوجب بيانها لتُعرف فلا يشاركه فيها ، وأي فائدة أعظم من هذه ؟! وأما ما يقع في أثناء الخصائص مما لا فائدة فيه اليوم فقليلٌ جداً لا تخلو أبواب الفقه عن مثله للتدرب ومعرفة الأدلة . وأما جمهور الأصحاب فلم يعرجوا على ما ذكره أبي خيران وإمام الحرمين ، بل ذكروا ذلك مستقصى لزيادة العلم لاسيما الإمام أبو العباس أحمد بن أبي أحمد بن القاص الطبري صاحب كتاب التلخيص . وقد رتب الحافظ أبو بكر البيهقي على كلامه في ذلك سننه الكبير على كلامه ، ولكن فرَّع كثيراً من ذلك على أحاديث فيها نظر سأذكرها إن شاء الله تعالى. وقد رتبوا الكلام فيها على أربعة أنحاء ؛ الأول : ما وجب عليه دون غيره . الثاني : ما حرم عليه دون غيره . الثالث : ما أبيح له دون غيره . الرابع : ما اختص به من الفضائل دون غيره . فذكروا في كل منها أحكام النكاح وغيرها ، وقد رأيت أن أرتبها على نوع آخر أقرب تناولاً مما ذكروه إن شاء الله تعالى ، فأقول وبالله التوفيق : الخصائص على قسمين ؛ أحدهما : ما اختص به عن سائر إخوانه من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . الثاني : ما اختص به من الأحكام دون أمته] .

****

هذا فصلٌ موسَّع بعض الشيء في ذكر خصائص النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

والمراد بالخصائص : أي الأمور التي لا يشرَكه ﷺ فيها أحد ؛ إما لا يشرَكه فيها أحدٌ من الأنبياء ، أو لا يشرَكه فيها أحد من أمته عليه الصلاة والسلام ؛ ولهذا فإن الإمام ابن كثير رحمه الله ارتضى في آخر حديثه عن هذا الموضوع تقسيم الخصائص إلى قسمين : قسم منها لا يشركه معه ﷺ فيها أحد من الأنبياء ، وقسم لا يشْركه فيها أحد من أمته صلوات الله وسلامه عليه . وسيأتي تمثيله رحمه الله تعالى لكلٍّ من القسمين .

وهذه الخصائص – وهي كثيرة جداً – تدل بلا ريب على فضل نبينا عليه الصلاة والسلام ومكانته العظيمة ومنزلته الرفيعة وما ميَّزه الله ﷻ به عن غيره من الأنبياء وما ميزه به عن أمته ﷺ من خصائص عظام وفضائل جسام .

وباب الخصائص من أبواب العلم النافعة التي تزيد المسلم حباً لهذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ومعرفةً بقدره ومكانته العلية ومنزلته الرفيعة صلوات الله وسلامه عليه ، ومعرفةً بما هو من خصائصه عليه الصلاة والسلام التي لا يشركه فيها غيره ﷺ سواءً في باب الفضائل أو في باب الأحكام والشرائع . والعلم بهذا الباب من العلم لا شك أنه نافعٌ ومفيدٌ للغاية وفوائده عديدة ، ومن أهل العلم من أفرد هذا الموضوع بالتصنيف في قديم الزمان وحديثه ، وهناك مؤلفات عديدة أُفردت في خصائص المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومن أهل العلم من جعله بحثاً ملحقاً بالسيرة النبوية ، وهذا سلَكه غير واحدٍ ممّن ألَّف في السيرة ، لأن من تمام معرفة سيرته عليه الصلاة والسلام معرفة ما اختُص به ﷺ ؛ ولهذا جرت عادة بعض المصنفين في السيرة إفراد فصلٍ يُذكر فيه خصائص النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

ومن أهل العلم من يتحدث عن موضوع الخصائص في كتب الفقه وخاصة عند كتاب النكاح وذلك لكثرة خصائص النبي عليه الصلاة والسلام المتعلقة بالنكاح ، فعند كتاب النكاح في كثير من كُتب الأحكام يُبدأ بخصائصه ﷺ في النكاح ثم تُذكر خصائصه الأخرى صلوات الله وسلامه عليه ؛ وهذا ما أشار إليه ابن كثير رحمه الله تعالى هنا قال : ((**قد أكثر أصحابنا** – يعني الشافعية – **وغيرهم من ذِكر هذا الفصل في أول كتب النكاح من مصنفاتهم**)) ؛ وعرفنا السبب في ذلك وهو : كثرة الأمور المختصة بنبينا عليه الصلاة والسلام في النكاح، فكان من المناسب عدُّ خصائصه عليه الصلاة والسلام في النكاح في هذا الموضع ، ثم يُلحِقون بها تبعاً لذلك خصائصه عليه الصلاة والسلام الأخرى .

قال : ((**تأسياً بالإمام أبي عبد الله** – يعني الإمام الشافعي رحمه الله تعالى – **صاحب المذهب فإنه ذكر طرفاً من ذلك هنالك**)) يعني عند كتاب النكاح .

أيضاً تلميذه المزني فعل مثله ، وتتابع أصحاب مذهب الإمام الشافعي على ذلك ، وأيضاً في المذاهب الأخرى كذلك مثل ما أشار الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى .

ثم نقل رحمه الله تعالى عن بعض الشافعية أنه منع من الكلام في خصائص رسول الله ﷺ في أحكام النكاح ، والمنع هنا ليس منعاً مطلقاً من الحديث في خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإنما منعٌ من الحديث عن خصائصه في كتاب أحكام النكاح ؛ لأن كتب الأحكام تختص بذِكر الأحكام العملية – أي الأمور التي يترتب عليها عمل – وأما

خصائص النبي عليه الصلاة والسلام فهي أمور مختصة به عليه الصلاة والسلام ، ولهذا رأى مثل ما ذكر ابن كثير رحمه الله ، وإن كان هذا القول رُدَّ ولم يلتفت له كثير من أهل العلم كما ذكر ذلك ابن كثير لكن وجه هذا القول : أن خصائص النبي عليه الصلاة والسلام التي في النكاح أمور تختص به فلا يترتب عليها حكمٌ عملي يناسِب أن يورد لأجله في كُتب الأحكام .

نقل عن بعضهم ((**أنه منع من الكلام في خصائص رسول الله ﷺ في أحكام النكاح وكذا في الإمامة ، ووجهه أن ذلك قد انقضى فلا عمل يتعلق به ، وليس فيه من دقيق العلم ما يقع به التدرب**)) ؛ لأن مسائل الفقه التي فيها استنباط الأحكام من الأدلة فيه مجال لطالب العلم أن يتدرب على الاستنباط واستخراج الأحكام من أدلتها ، أما ما كان من هذا النوع فلا مجال فيه للتدرب والتمرن على استنباط الأحكام .

قال : ((**فلا وجه لتضييع الزمان برجم الظنون فيه**)) ؛ وهذا الكلام محمَلُه – كما ذكرت – مختصٌّ بإيراد الخصائص في كتب الأحكام ، أما أن يُعتنى بالخصائص من حيث هي وأن يكون باباً من أبواب معرفة فضل النبي عليه الصلاة والسلام ومعرفة مكانته ومنزلته العلية فهذا ممّا لا يُتنازع فيه ، بل هو باب شريفٌ من أبواب العلم التي يُعرف بها فضل نبينا عليه الصلاة والسلام ويُعرف بها أيضاً خصائصه العظام التي امتاز بها إما عن غيره من الأنبياء أو امتاز بها عن غيره من سائر أمته صلوات الله وسلامه عليه .

ثم نقل عن بعض أهل العلم انتقادهم لهذا القول مثل استغراب ابن الصلاح له ، ونقل أيضاً نقولات أخرى منها نقله عن أبي زكريا النووي في كتابه تهذيب الأسماء واللغات قال : ((**الصواب الجزم بجواز ذلك ، بل باستحبابه ولو قيل بوجوبه لم يكن بعيداً إن** – وفي بعض النسخ "إذ" – **لم يَمنع منه إجماع ، لأنه ربما رأى جاهل بعض الخصائص ثابتاً في الصحيح فيعمل به أخذاً بأصل التأسي**)) ؛ وهذا أيضاً وجهٌ عظيم نبَّه عليه الشافعي.

والعلماء رحمهم الله ذكروا أن الخصائص على قسمين :

- قسمٌ يتعلق بالتشريع ، بالأحكام ، بالتكليف ، بالفعل والترك .
- وقسم آخر يتعلق بالفضائل والمناقب وبيان مكانة النبي عليه الصلاة والسلام ، ليس مما يترتب عليه عمل ؛ لا فعل أمر ولا ترك نهي .

والإمام النووي رحمه الله تعالى هنا يتحدث عن القسم الأول ؛ ما كان من خصائص النبي عليه الصلاة والسلام الذي هو من قبيل الأعمال والأمور التي كُلِّف بها وخُصَّ بها عليه الصلاة والسلام دون أمته . يقول مثل هذا النوع إذا لم يُنبَّه عليه في كُتب الأحكام فإنه يترتب على ذلك أنه ربّما وقف بعض الناس على حديثٍ في ذلك فعمل به بناءً على أصل التأسي بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام فيقع في الخطأ ، ولهذا يرى النووي رحمه الله تعالى أن المناسب أن تُذكر الخصائص التي من هذا القبيل في كُتب الأحكام حتى يُعلَم أنها أمورٌ اختُص بها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام لا يُشرع لأي أحد من أمته أن يفعلها لأنها من خصائصه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

ثم أشار إلى أن ((**جمهور الأصحاب** – أي من الشافعية – **لم يعرِّجوا على ما ذكره ابن خَيْران وإمام الحرمين ، بل ذكروا ذلك مستقصى** – يعني في كتب الأحكام – **لزيادة العلم ، لاسيما الإمام أبو العباس أحمد بن أبي أحمد ابن القاص الطبري صاحب كتاب التلخيص**)) .

ثم أشار إلى أن البيهقي رحمه الله تعالى في كتابه السنن رتب ذلك وفرَّع عليه تفريعات كثيرة وأورد أيضاً أحاديث أشار ابن كثير رحمه الله إلى أن فيها نظراً .

وهنا ينبغي أن يُنتبه إلى أن الأحاديث التي تورد في الخصائص عددٌ منها لا يصح ويكون مبالغة ، وبعضها وضعٌ وكذبٌ واختلاقٌ لا أساس له ؛ فهذا أيضاً ممّا يؤكد أن العناية بمعرفة خصائص النبي عليه الصلاة والسلام الصحيحة الثابتة تفيد فائدة عظيمة في هذا الجانب : أن يعرف الإنسان فضائل النبي عليه الصلاة والسلام الثابتة، وفي الوقت نفسه أن يسْلَم من الوقوع في المغالاة وفي إثبات خصائص هي نوع من الباطل والضلال والكذب والافتراء لا أصل لها ؛ هذا من ناحية ، من ناحية أخرى : أن باب الخصائص كغيره من أبواب العلم الناس فيه ثلاثة أقسام : طرفان ووسط .

- طرف من الناس غلو في ذكر ما اختُص به ﷺ فوصل الحال ببعضهم أن أضفى للنبي عليه الصلاة والسلام من الخصائص والأوصاف أموراً هي مختصة بالله رب العالمين ولا تليق إلا بالله ذي الجلال ﷻ ؛ وهذا من أبطل الباطل ، والنبي عليه الصلاة والسلام أنكر مثل هذا أشد الإنكار ونهى عنه أشد النهي وقال ﷺ في بعض أحاديثه :

((أجعلتني لله نِدا ؟)) هذا أمر لا يرضاه عليه الصلاة والسلام ولا يقبله ، وهو أمر يخالف أساس دعوته ومقصود رسالته صلوات الله وسلامه عليه ، وهو من الغلو في دين الله ﷻ ، والنبي عليه الصلاة والسلام حذَّر من الغلو أشد التحذير ، وحذَّر من الغلو في شخصه هو صلوات الله وسلامه عليه فقال : ((لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ)) ، ولهذا باب الخصائص انزلق فيه أقوام فأخذوا يطرون النبي عليه الصلاة والسلام ويغالون في مدحه وذكر أوصافٍ له وخصائص له لا تليق إلا بالله ربّ العالمين .

- قسم آخر من الناس جفَوْ في باب الخصائص ، وربما جعلوا أموراً هي خاصة بالنبي ﷺ أشركوا معه فيها غيره من الأولياء أو الصالحين أو حتى أقول الطالحين ، فهذا أيضاً داخل في باب الجفاء في حق نبينا صلوات الله وسلامه عليه . أيضاً يدخل هنا في هذا الجانب الأحاديث الموضوعة والروايات الواهية والقصص المختلقة .

والحق قوام بين ذلك ، وسط بين ضلالتين ، لا غلو ولا جفاء ، ولا إفراط ولا تفريط ، ولا زيادة ولا تقصير ، والحق في هذا الباب : أن يُثبت المسلم للنبي عليه الصلاة والسلام من الخصائص ما كان ثابتاً في النصوص الصحيحة ؛ فلا يزيد على ذلك لأن الزيادة مغالاة ، ولا ينقُص عن ذلك بجحد وإنكار شيء منها لأن الإنكار جفاء . والغلو مذموم والجفاء مذموم وخيار الأمور أوساطها لا تفريطها ولا إفراطها كما قال الله ﷻ : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] ؛ فالحق الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم في هذا الباب وفي كل باب من أبواب الدين أن يتوسط ، فلا يغلو ولا أيضاً يجفو .

إذاً المطلوب في باب الخصائص : الوسطية والاعتدال ؛ نثبت لنبينا عليه الصلاة والسلام من الخصائص ما ثبت في النصوص الصحيحة فنقول من خصائصه كذا لثبوته في كذا ، ومن خصائصه كذا لدليل كذا ، ونمضي بهذه الطريقة نذكر ما اختُص به مع دليله الصحيح الثابت ، فمن زاد على ذلك دخل في جانب الغلو ، ومن جحد شيئا من ذلك دخل في جانب الجفاء .

ثم أشار الإمام ابن كثير رحمه الله أن كثيراً ممن تكلموا في الخصائص قسَّموها إلى أقسام أربعة :

١. قسم : ما وجب عليه دون غيره .

٢. قسم : ما حرم عليه دون غيره .

٣. قسم : ما أبيح له دون غيره .

٤. قسم : ما اختص به من الفضائل دون غيره .

وهذا التقسيم الرباعي يمكن أن يُقسَّم إلى قسمين ، فيقال الخصائص تنقسم إلى قسمين :

١- قسم يتعلق بالأحكام ؛ وهذا يدخل تحته الأمور الثلاثة الأولى .

٢- وقسم يتعلق بالفضائل .

وتحت كل قسم يورد أهل العلم أمثلة على ذلك ، ومنها أشياء تأتي في نصوص غير ثابتة فمثل ذلك لا يحِلّ أن يورد إلا على وجه بيان عدم ثبوته وعدم صحته ، خاصة ما جاء في الأحاديث الواهيات والروايات المكذوبات .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : ((**وقد رأيت أن أرتبها على نوع آخر أقرب تناولاً مما ذكروا إن شاء الله تعالى، فأقول وبالله التوفيق : الخصائص على قسمين :**

أحدهما : ما اختص به عن سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . الثاني : ما اختص به من الأحكام دون أمته)) ؛ وفي ضوء هذين القسمين أخذ يعرض رحمه الله تعالى خصائص المصطفى ﷺ .

قال رحمه الله :

[**(القسم الأول : ما اختص به دون غيره من الأنبياء) أما القسم الأول : ففي الصحيحين عن جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ ، وأحلَّت لي الغنائم ولم تحلَّ لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثتُ إلى الناس عامة " . فقوله ﷺ : " نصرت بالرعب مسيرة شهر " قيل : كان إذا هم بغزو قوم أرهبوا منه قبل أن يقدُم عليهم بشهر ولم يكن هذا لأحد سواه . وما روي في صحيح مسلم في قصة نزول عيسى عليه الصلاة والسلام**

إلى الأرض وأنه لا يدرك نفَسُه كافراً إلا مات ، ونفَسه ينتهي حيث ينتهي بصره ، فإن كان ذلك صفة له لم تزل من قبل أن يُرفع فليست نظير هذا ، وإلا فهو بعد نزوله إلى الأرض أحد أمة محمد ﷺ ، يعني أنه يحكم بشرعه ولا يوحي إليه بخلافها والله تعالى أعلم. وأما قوله ﷺ : " وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " فمعنى ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده : " إن من كان قبلنا كانوا لا يصلُّون في مساكنهم وإنما كانوا يصلون في كنائسهم " . وقوله "طهوراً " يعني به التيمم ، فإنه لم يكن في أمة قبلنا ، وإنما شرع له ﷺ ولأمته توسعة ورحمة وتخفيفاً . وقوله ﷺ : " وأحلت لي الغنائم" فكان من قبله إذا غنموا شيئاً أخرجوا منه قسماً فوضعوه ناحية فتنزل نار من السماء فتحرقه . [

****

شرع هنا الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في ذكر القسم الأول من الخصائص وهو ما اختص به ﷺ دون غيره من الأنبياء ، فذكر أولاً حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ((**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ من الأنبياء قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**)) ؛ فهذا صريح أن هذه الخمس خصائص له عليه الصلاة والسلام دون سائر الأنبياء ، لأنه قال : ((**لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ من الأنبياء قَبْلِي**)) ، لم يُعطَ أي نبيٍّ من الأنبياء قبله شيء من هذه الأمور الخمس . وأخذ رحمه الله تعالى يشرح هذه الخصائص واحدةً واحدة .

قال : ((**فقوله : " نصرت بالرعب مسيرة شهر " قيل : كان إذا هم بغزو قوم أرهبوا منه**)) ؛ معناه أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا همَّ بمقاتله أحد من أعدائه ألقى الله ﷻ في قلوبهم الرّعب .

((**قبل أن يقدم عليهم بشهر**)) ، يعني قبل أن يقدم عليهم بشهر يبدأ الخوف ينتاب قلوبهم والقلق يَشغَل نفوسهم ، فهذا معنى قوله " نُصرت بالرعب مسيرة شهر" .

ثم أورد رحمه الله تعالى أمراً قد يُستشكل ، وهو أنه ثبت في صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان ﷺ أن عيسى إذا نزل آخر الزمان جاء في الحديث ((**أنه لا يدرك نفَسه كافراً إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي بصره**)) ؛ فهل هذا يعارض قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث ((**نُصرت بالرعب**)) -يعني أنني خُصصت دون الأنبياء أنني نصرت بالرعب- ؟

بيَّن ابن كثير رحمه الله بياناً بيِّناً أن هذا الذي ذُكر في شأن عيسى عليه السلام لا يخلو من حالتين :

الحالة الأولى : ((**فإن كان ذلك صفة له لم تزل من قبل أن يُرفع فليست نظير هذا**)) ؛ يعني إن كان هذا ثابتاً لعيسى قبل أن يُرفع فإنه يُقال فيه إنه نوعٌ آخر وباب آخر غير باب " نُصرت بالرّعب" ، وهو أن نفَسه بإذن الله ﷻ إذا بلغ الكافر مات في مكانه ، ونفَسه ينتهي حين ينتهي بصره .

الحالة الثانية: ((**وإلا فهو بعد نزوله إلى الأرض أحد أمة محمد ﷺ ، يعني أنه يحكم بشرعه ولا يوحي إليه بخلافها والله تعالى أعلم**)) ؛ إن كان شيئاً يحصل لعيسى عليه السلام فيما بعد عندما ينزل في آخر الزمان ، فإنه في حين نزوله في آخر الزمان باعتباره واحد من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا يحكم بالإنجيل وإنما يحكم بالقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**وأما قوله ﷺ : " وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " فمعنى ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده : " إن من كان قبلنا كانوا لا يصلون في مساكنهم ، وإنما كانوا يصلون في كنائسهم "**)) ؛ يعني فيمن كان قبلنا هناك أماكن مخصصة يُصلى فيها وهي أماكن العبادة ، ومطلوبٌ من كل مصلي إذا جاء وقت الصلاة أن تكون صلاته في مكان العبادة ، أما في أمة محمد عليه الصلاة والسلام قال : ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا)) . والحديث الذي أورده رحمه الله وهو في المسند أورده رحمه الله تعالى في كتابه التفسير وقال : إسناده جيد وقوي . وهو يوضح معنى قوله عليه الصلاة والسلام : ((وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)) ؛ "مسجداً " : أي حيث ما أدركتك الصلاة – في سفر ، في طريق ، في نحو ذلك – صلِّ . أما حيث ينادى بالصلاة ويسمع المرء النداء يجب

عليه أن يجيب النداء ، ومن سمع النداء فلم يُجب في المساجد التي دُعي إلى الصلاة فيها فلا صلاة له إلا من عُذر كما قال ذلك عليه الصلاة والسلام .

قال : ((**وقوله "طهوراً " يعني به التيمم**)) ؛ حتى ولو لم تجد الماء فتيمم ، الأرض جُعلت صعيداً طيبا . فقوله ((جعلت لي الأرض مسجداً)) يعني أصلي في أيِّ موضع منها أدركتني فيه الصلاة ، وجعلت لي الأرض طهورا إذا لم أجد الماء أتيمم وأصلي .

قال : ((**فإنه لم يكن في أمة قبلنا**)) ؛ يعني هذا من خصائص محمد عليه ﷺ وأمته ، جعلت الأرض كلها مسجدا وطهورا .

قال : ((**وإنما شرع له ﷺ ولأمته توسعةً ورحمةً وتخفيفاً**)) ؛ فلله ﷻ الحمد أولاً وآخراً وله جل وعلا الشكر ظاهراً وباطنا .

قال رحمه الله تعالى : ((**وقوله ﷺ : " وأحلت لي الغنائم " فكان من قبله إذا غنموا شيئاً أخرجوا منه قسماً فوضعوه ناحية ، فتنزل نار من السماء فتحرقه**)) ؛ أما محمد عليه الصلاة والسلام فأحلَّت له عليه الصلاة والسلام الغنائم .

قال رحمه الله :

[**وقوله ﷺ : " وأعطيت الشفاعة " يريد بذلك صلوات الله وسلامه عليه المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، والمقام الذي يرغب إليه الخلق كلهم ليشفع لهم إلى ربهم ليفصل بينهم ويريحهم من مقام المحشر، وهي الشفاعة التي يحيد عنها أولو العزم ، لما خصه الله به من الفضل والتشريف ، فيذهب فيقعقع باب الجنة فيقول الخازن من أنت ؟ فيقول محمد . فيقول : بك أمرت ألَّا أفتح لأحد قبلك . وهذه خصوصية أيضاً ليست إلا له من البشر كافة ، فيدخل الجنة فيشفع إلى الله تعالى في ذلك كما جاء في الأحاديث الصحاح ، وهذه هي الشفاعة الأولى التي يختص بها دون غيره من الرسل . ثم تكون له بعدها شفاعات في إنقاذ من شاء الله من أهل الكبائر من النار من أمته ، ولكن الرسل يشاركونه في هذه الشفاعة ، فيشفعون في عصاة أممهم ، وكذلك الملائكة بل والمؤمنين كما في الصحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد فيقول الله تعالى " شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين " وذكر الحديث.**

وقد استقصى هذه الشفاعات الإمام أبو بكر بن خزيمة في آخر كتاب التوحيد وكذلك أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنة له ، وكذلك هي مبسوطة بسطاً حسناً في حديث الصور الذي رواه الطبراني في المطولات وأبو موسى المديني الأصبهاني وغيرهما ممن صنَّف في المطولات . وقد جمع الوليد بن مسلم عليه مجلداً ، وقد أفردت إسناده في جزء ، فأما رواية أصحاب الكتب الستة كالصحيحين وغيرها فإنه كثيراً ما يقع عندهم اختصار في الحديث أو تقديم وتأخير ويظهر ذلك لمن تأمله، والله أعلم . ثم رأيتُ في صحيح البخاري شيئاً من ذكر الشفاعة العظمى ، فإنه قال في كتاب الزكاة : باب من سأل الناس تكثراً : ثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن عبيد الله بن أبي جعفر ، قال : سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر قال : سمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : "ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم" . وقال : "إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم موسى ثم بمحمد " . زاد عبد الله بن يوسف قال : حدثني الليث عن أبي جعفر "فيشفع ليقضى بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً ، يحمده أهل الجمع كلهم " ، فهذه هي الشفاعة العظمى التي يمتاز بها عن جميع الرسل أولي العزم ، بعد أن يُسأل كل واحد منهم أن يقوم فيها فيقول : لست هناكم اذهبوا إلى فلان ، فلا يزال الناس من رسول إلى رسول حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ فيقول : أنا لها ، فيذهب فيشفع في أهل الموقف كلهم عند الله تعالى ليفصل بينهم ويريح بعضهم من بعض] .

****

ثم قال رحمه الله تعالى ((**وقوله ﷺ : " وأعطيت الشفاعة "))** ؛ أي في حديث جابر المتقدم.

((يريد بذلك صلوات الله وسلامه عليه المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، والمقام الذي يرغب إليه الخلق كلهم ليشفع لهم إلى ربهم ليفصل بينهم ويريحهم من مقام المحشر، وهي الشفاعة العظمى التي يحيد عنها أولو العزم – من الرسل– **لما خصه الله به** –ﷺ– **من الفضل والتشريف))** ؛ فقوله عليه الصلاة والسلام : ((وأعطيت الشفاعة))

المراد بالشفاعة هنا : الشفاعة العظمى ، لأن هناك شفاعات يوم القيامة يشركه فيها الأنبياء والملائكة والصالحين من عباد الله ؛ فتشفع الملائكة ويشفع الأنبياء ويشفع أيضاً الصالحون من عباد الله كما سيأتي إشارة ابن كثير رحمه الله تعالى لذلك .

فقوله : ((أعطيت الشفاعة)) هذا أمرٌ خاص به صلوات الله وسلامه عليه ، والمراد به : الشفاعة العظمى التي يتدافعها الأنبياء يوم القيامة ، وهي أن يشفع النبي ﷺ لأهل المحشر في أن يبدأ الله ﷻ بالحساب ، لأن الناس يقفون يوم الحشر موقفاً عصيبا وموقفاً عظيماً يوم يطول بهم إطالة شديدة جداً والشمس تدنوا من الخلائق ، ويقفون على أرض عفراء مستوية لا انخفاض فيها ولا ارتفاع ولا بناء ولا أشجار ولا غير ذلك ، ويقفون يوماً مقداره خمسين ألف سنة، ويكون يوماً عصيباً فيبدأ الناس من هول ذلك اليوم وشدته وعظم الكرب فيه فيذهبون إلى الأنبياء ويطلبون منهم الشفاعة عند الله ﷻ أن يبدأ بالفصل بين العباد والقضاء بين الخلائق ، فيذهبون إلى آدم عليه السلام فيعتذر ويحيلهم إلى نوح ، فيذهبون إلى نوح عليه السلام ويعتذر ويحيلهم إلى إبراهيم ، فيذهبون إلى إبراهيم عليه السلام ويعتذر ويحيلهم إلى موسى ، فيذهبون إلى موسى عليه السلام ويعتذر ويحيلهم إلى عيسى ، ويذهبون إليه ويعتذر ويحيلهم إلى محمد ﷺ ، فيقول: "أنا لها " . فهذه خاصة به عليه الصلاة والسلام ؛ الناس يتوجهون إلى الأنبياء يطلبون منهم أن يشفعوا عند الله فيعتذر كل واحد منهم إلى أن يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول ((أنا لها)) وهذا هو المراد من قول الله ﷻ : ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩] . قال عليه الصلاة والسلام : ((فأخر ساجداً تحت العرش – يعني عندما يطلب منه الخلائق أن يشفع لهم عند الله ﷻ – وأحمد الله ﷻ بمحامد وحسن الثناء عليه بشيء يعلمني إياه في ذلك الوقت لا أعلمها الآن ، ثم يقال ارفع رأسك وسل تعطى واشفع تُشفَّع)) فيشفع عليه الصلاة والسلام وحينئذ يجيء الرّب ﷻ للفصل بين العباد مجيئاً يليق بجلاله وكماله وعظمته ﷻ لا نعلم كيفيته كما قال الله ﷻ في سورة الفجر : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)﴾ أي الملائكة محيطة بالخلائق صفوف من وراء صفوف ، وفي ذلك اليوم أيضاً يُجاء بجهنم ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ ، وهذا المجيء بُيّن في صحيح مسلم ، يقول عليه الصلاة والسلام : ((يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ

يَجُرُّونَهَا)) ، وعدد الملائكة الذين يقومون بجر جهنم في أرض المحشر سبعون ألف في سبعين ألف . وحينئذ يكون الفصل بين العباد وتُنشر الدواوين وتتطاير الصحف وآخذٌ كتابه بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله من وراء ظهره ، فهذه الشفاعة العظمى وهي خاصة بنبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام : ((أُعطيت الشفاعة)) .

وأيضاً من الشفاعة التي أُعطيها وخُصَّ بها عليه الصلاة والسلام : الشفاعة لجميع أهل الجنة في دخول الجنة ؛ فهو عليه الصلاة والسلام أول من يستفتح باب الجنة ((**فيقعقع باب الجنة فيقول الخازن مَن ؟ فيقول محمد . فيقول: بك أمرت ، ألا أفتح لأحد قبلك**)) .

قال : ((**وهذه خصوصية أيضاً ليست إلا له من البشر ، فيدخل الجنة فيشفع إلى الله تعالى في ذلك كما جاء في الأحاديث الصحاح . وهذه هي الشفاعة الأولى التي يختص بها دون غيره من الرسل**)).

إذاً هاتان شفاعتان :

- الأولى : الشفاعة لعموم الخلائق في أن يبدأ الله ﷻ بالبدء في الحساب ؛ وهذه خاصة به عليه الصلاة والسلام
- الشفاعة الثانية : لعموم أهل الجنة يشفع لهم عند الله ﷻ في أن يدخلوا الجنة ؛ فهذه أيضاً خاصة به عليه الصلاة والسلام .

وله أيضا شفاعات أخرى خاصة سيأتي الإشارة لها عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال : ((**ثم تكون له بعد ذلك شفاعات من إنقاذ من شاء الله من أهل الكبائر من النار من أمته**)) ؛ الشفاعة لعصاة الموحدين .

قال : ((**ولكن الرسل يشاركونه في هذه الشفاعة ، فيشفعون في عصاة أممهم**))

((**وكذلك الملائكة**)) ؛ قال الله تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] فالملائكة أيضاً تشفع .

((**بل والمؤمنون**)) ؛ وأيضاً المؤمنون يشفعون .

وشاهد ذلك : ((**ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين .. وذكر الحديث**)).

ثم قال رحمه الله تعالى : ((**وقد استقصى هذه الشفاعات**)) يعني ذِكر هذه الشفاعات والأدلة عليها .

((**الإمام أبو بكر بن خزيمة في آخر كتابه التوحيد**)) ؛ وهو كتاب عظيم نافع في بابه وهو مطبوع متداول بين أهل العلم وطلابه .

قال : ((**وكذلك أبو بكر ابن أبي عاصم في كتاب السنة له**)) ؛ وهو أيضاً مطبوع .

((**وكذلك هي مبسوطة بسطاً حسناً في حديث الصور الذي رواه الطبراني في المطولات من حديث أبي هريرة ، وأبو موسى المديني الأصبهاني ، وغيرهما ممن صنف في المطولات**)) ؛ حديث طويل في ذكر أنواع الشفاعات يروى من حديث أبي هريرة ﷺ .

قال : ((**وقد جمع الوليد بن مسلم عليه مجلداً ، وقد أفردتُ إسناده في جزء**)) ؛ الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عندما أشار إلى هذا الحديث في كتابه البداية والنهاية وأشار إلى من رواه ذكر أنه رُويَ من طُرقٍ متعددة عن إسماعيل ابن رافع قاص أهل المدينة ، وقد تُكُلِم فيه بسببه وفي بعض سياقاته نكارة واختلاف ، وقد نصَّ على نكارة متنه غير واحد من الأئمة كأحمد ابن حنبل وأبي حاتم الرازي ومحمود بن علي الفلَّاس ، وأما سياقه فغريب جداً ، ويُقال إنه جمعه من أحاديث كثيرة جعلها سياقاً واحداً فأُنكر عليه بسبب ذلك . قال : وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول : إنه رأى للوليد ابن مسلم مصنفاً قد جمع فيه كل الشواهد لبعض مفردات هذا الحديث . وابن كثير يشير هنا إلى أنه أيضاً أفرد إسناده في جزء .

قال : ((**فأما رواية أصحاب الكتب الستة كالصحيحين وغيرها فإنه كثيراً ما يقع عندهم اختصار في الحديث أو تقديم وتأخير ، ويظهر ذلك لمن تأمله ، والله تعالى أعلم**)) .

قال : ((**ثم رأيت في صحيح البخاري شيئاً من ذكر الشفاعة العظمى ، فإنه قال في كتابه الزكاة " باب من سأل الناس تكثراً " : حدثنا يحيى بن بكير ، قال حدثنا الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر قال : سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر قال : سمعت عبد الله**

بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ» ، وَقَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ القِيَامَةِ، حَتَّى يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ »)) ؛ ومعنى استغاثوا أي : طلبوا منهم أن يشفعوا لهم عند الله ﷻ في البدء في القضاء والفصل بين الناس .

قال ابن كثير رحمه الله : ((**زاد عبد الله ابن يوسف**)) ؛ هكذا ذكر رحمه الله تعالى ، والذي في صحيح البخاري "وزاد عبد الله حدثني الليث ... الخ " هكذا غير منسوب ، وجاء في الفتح لابن حجر رحمه الله تعالى قال : (("وَزَادَ عَبْد اللَّه بْن صَالِح" : كَذَا عِنْدَ أَبِي ذَرٍّ ، وَسَقَطَ قَوْلُهُ " اِبْن صَالِح " مِنْ رِوَايَة الْأَكْثَر)) ، ثم ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى من رواه من طريق عبد الله ابن صالح وهو المصري ، ومن تابعه على هذه الزيادة.

قال رحمه الله تعالى : ((**زاد عبد الله بن يوسف حدثني الليث عن ابن أبي جعفر : «فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ البَابِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا يَحْمَدُهُ أَهْلُ الجَمْعِ كُلُّهُمْ»**)) وهذه اللفظة التي ذكرها ابن كثير رحمه الله جمعت الأمرين في مقام الشفاعة العظمى :

- الأمر الأول : شفاعته عليه الصلاة والسلام لعموم الخلائق أن يبدأ الله ﷻ في الفصل بين الخلائق .
- الأمر الثاني : أنه عليه الصلاة والسلام يمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة ؛ فهذه أيضاً شفاعة خاصة به صلوات الله وسلامه عليه وهي شفاعته لأهل الجنة في دخول أهل الجنة .

قال : ((**فهذه هي الشفاعة العظمى التي يمتاز بها عن جميع الرسل أولي العزم بعد أن يُسأل كل واحد منهم أن يقوم فيها فيقول : لست هناكم اذهبوا إلى فلان**)) ؛ كل نبي يُطلب منه أن يشفع يقول : لست هناكم أي لست أهلاً لذلك ويحيلهم إلى نبي آخر .

((**فلا يزال الناس من رسول إلى رسول حتى ينتهوا إلى محمد عليه الصلاة والسلام سيد الأولين والآخرين فيقول: أنا لها ، فيذهب فيشفع في أهل الموقف كلهم عند الله تعالى ليفصل بينهم ويريح بعضهم من بعض**)) .

قال رحمه الله :

[ثم له بعد ذلك شفاعات أربعٌ أخر ، منها في إنقاذ خلْقٍ ممن أدخل النار . ثم هو أول شفيع في الجنة كما رواه الإمام أحمد في مسنده ، عن المختار بن فلفل عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : " أنا أول شافع في الجنة " . وهو شفيع في رفع درجات بعض أهل الجنة ، وهذه الشفاعة اتفق عليها أهل السنة والمعتزلة ودليلها : ما في صحيح البخاري من رواية أبي موسى أن عمه أبا عامر لما قُتل بأوطاس قال رسول الله ﷺ : "اللهم اغفر لعبيد أبي عامر واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك" . وقال عليه الصلاة والسلام لما مات أبو سلمة بن عبد الأسد : "اللهم ارفع درجته" . وسنفرد إن شاء الله في الشفاعة جزءاً لبيان أقسامها وتعدادها وأدلة ذلك إن شاء الله تعالى] .

****

ثم قال رحمه الله : ((**ثم له بعد ذلك شفاعات أربع أخر منها في إنقاذ خلقٍ ممن أدخل النار**)) ؛ لما ذكر رحمه الله تعالى الشفاعتين اللتين هما خاصتان به عليه الصلاة والسلام – الشفاعة العظمى لأهل الموقف في البدء بالحساب ، والشفاعة لأهل الجنة في دخول الجنة – قال : له شفاعات أربع أخر ؛ منها ما هي خاصة به عليه الصلاة والسلام مثل شفاعته لعمه أبي طالب في أن يخفف الله ﷻ عنه من العذاب ، ومنها ما يشترك معه فيها غيره من النبيين والشافعين ؛ مثل الشفاعة لعصاة الموحدين ، ومثل أيضاً الشفاعة في رفعة الدرجات في الجنة كشفاعته لأبي عامر الأشعري رضي الله عنه بأن يجعله فوق كثير من خلقه .

قال : ((**ثم هو أول شفيع في الجنة ، كما رواه الإمام أحمد في مسنده عن المختار بن فلفل عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " أنا أول شافع في الجنة"**)) ؛ والحديث رواه مسلم في صحيحه .

قال : ((**وهو شفيع في رفع درجات بعض أهل الجنة ، وهذه الشفاعة اتفق عليها أهل السنة والمعتزلة**))؛ ذِكر موافقة المعتزلة لأهل السنة في هذه الشفاعة هنا ، لا لأن موافقتهم تعطي قيمة في الأمر أو لأن موافقتهم لها مكانة ؛ فإن كونهم يوافقون أو لا يوافقون لا يعطي الأمر أي مكانة أو قيمة ، ومخالفتهم أو موافقتهم ليست بشيء ولا يلتفت إليها ؛ لأنهم قوم

من أهل البدع والضلال وأصحاب عقول ولا يعظِّمون النصوص ولا يعوّلون على الأدلة ويحكِّمون عقولهم ويقدِّمونها على كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام . لكن فائدة قوله رحمه الله تعالى ((وهذه الشفاعة اتفق عليها أهل السنة والمعتزلة)) : التنبيه على الفساد العريض الذي عند هؤلاء ، أن هذه الشفاعات العظيمة والخصائص العظيمة التي ثبتت بالأدلة وهي من خصائص نبينا عليه الصلاة والسلام هؤلاء المبطلة لا يوافقون عليها ولا يقبلونها ولا يثبتون من الشفاعة إلا هذا . فالقوم في هذا الباب أنكروا الشفاعات وأنكروا ما اختُص به نبينا عليه الصلاة والسلام من مناقب وكرامات وفضائل فهم في حق نبينا عليه الصلاة والسلام قومٌ جفاة ينكرون من الخصائص للمصطفى عليه الصلاة والسلام ما هو ثابت بالنصوص الصحاح والأدلة الثابتة الواضحة البينة ، ويقابلهم أقوام آخرون من الطرقية ويغالون في باب الشفاعة فيثبتون في باب الشفاعة أموراً باطلة ، بل يدخلون في باب الشرك والتعلقات الباطلة والاستغاثات المحرمة وصرف العبادة لغير الله ﷻ ويعدُّون ذلك في باب الشفاعة أو الاستشفاع ؛ فهذا غلو وباطل ، وهؤلاء المعتزلة وأضرابهم داخلون في باب الجفاء في إنكار خصائص النبي صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال : ((**ودليلها : ما في صحيح البخاري من رواية أبي موسى الأشعري أن عمه أبا عامر الأشعري لما قُتل بأوطاس قال رسول الله ﷺ : "اللهم اغفر لعبيد أبي عامر واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك"**)) ؛ ونحن عرفنا أن بعد حنين لما فرّ المشركون قسمٌ منهم فروا إلى الطائف وقسم منهم فروا إلى أوطاس ، فأمّر النبي ﷺ أبا عامر الأشعري رضي الله عنه مع جماعة من الصحابة ولحقهم في أوطاس وقاتلهم وأصيب أبو عامر رضي الله عنه بسهم في ركبته ، فأتاه أبو موسى الأشعري فقال له : من الذي أصابك؟ فأشار إلى رجل فانطلق أبو موسى الأشعري في أثره ولحقه وقتله ورجع إلى أبي عامر وبشَّره بأنه قتل قاتله ، ثم قال : انزع هذا السهم ، فنزعه من ركبته فبدأ الماء يسيل وشعر أنه في نهاية الأمر . فقال رضي الله عنه : "أقرئ النبي ﷺ مني السلام واسأله أن يستغفر لي" . فلما ذهب أبو موسى الأشعري رضي الله عنه إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأقرأه سلام أبو عامر وطلبه الاستغفار ؛ طلب ﷺ الماء وتوضأ ومدّ يديه ، قال : حتى رأينا بياض إبطيه صلوات الله وسلامه عليه ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((

اللهم اغفر لعبيد أبي عامر واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك)) . فهذا نوع من الشفاعة ؛ الشفاعة في رفعة الدرجات لبعض أهل الجنة .

((**وقد قال عليه الصلاة والسلام لما مات أبو سلمة ابن عبد الأسد : "اللهم ارفع درجته في عليين**")) والحديث في صحيح مسلم عن أم مسلمة رضي الله عنها.

قال رحمه الله تعالى : ((**وسنفرد إن شاء الله جزءاً لبيان أقسامها وتعدادها وأدلة ذلك**)) ؛ وفي بعض النسخ للفصول لابن كثير يوجد فصل في الشفاعة وأقسامها وبها خُتم الكتاب ، وستأتي معنا بإذن الله تبارك وتعالى لاحقاً .

قال رحمه الله :

[**وأما قوله ﷺ : " وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثتُ إلى الناس عامة " فمعناه في الكتاب العزيز، وهو قوله ﷻ** : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤] ، **وقوله تعالى** : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] ، **فكان النبي ممن كان قبلنا لا يكلف من أداء الرسالة إلا ما يدعو به قومه إلى الله ، وأما محمد صلوات الله وسلامه عليه فقال الله تعالى** : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف:١٥٨] ، **وقال تعالى** : ﴿لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] **وقال تعالى** : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود:١٧] **وقال تعالى** : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠] **في آيٍ كثير من القرآن تدل على عموم رسالته إلى الثقلين ، فأمره الله تعالى أن ينذر جميع خلقه إنسهم وجنّهم ، وعربهم وعجمهم ، فقام صلوات الله وسلامه عليه بما أمر ، وبلَّغ عن الله رسالته**].

****

قال رحمه الله تعالى : ((**وأما قوله : " وكان النبي ﷺ يبعث إلى قومه وبعثتُ إلى الناس عامة**")) ؛ أيضاً هذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام أنه بُعث للناس عامة ، ومن قبله من النبيين والمرسلين كلٌ منهم يُبعث إلى قومه خاصة ، أما نبينا عليه الصلاة والسلام فإنه

بُعث رحمةً للعالمين ، فليست رسالته خاصة بقومه وليست خاصة بالعرب وإنما هي للناس كافة ، بُعث للناس ﷺ كافة بشيراً ونذيرا، وسيذكر المصنف رحمه الله تعالى جملة من الأدلة على ذلك .

قال : ((**فمعناه في الكتاب العزيز ، وهو قوله** ﷻ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤] ، **وقوله تعالى** : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤] ، **فكان النبي ممن كان قبلنا لا يكلف من أداء الرسالة إلا ما يدعو به قومه إلى الله ، وأما محمد صلوات الله وسلامه عليه فقال الله تعالى** : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف:١٥٨] ، **وقال تعالى** : ﴿لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] **وقال تعالى** : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود:١٧] **وقال تعالى** : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠] **في آيٍ كثير من القرآن تدل على عموم رسالته إلى الثقلين ، فأمره الله تعالى أن ينذر جميع خلقه إنسهم وجنهم ، وعربهم وعجمهم ، فقام صلوات الله وسلامه عليه بما أمر به وبلَّغ عن الله رسالته**)) أتم البلاغ.

ومن شواهد عموم رسالته : ما نراه الآن في زماننا الحاضر من انتشار الإسلام بكافة اللغات ، فرسالة النبي عليه الصلاة والسلام للناس جميعاً على اختلاف لغاتهم ، ولهذا تجد الإسلام مبيَّن وموضَّح ومشروح بلغات كثيرة ويقيض الله ﷻ مع الأزمنة والأوقات من أهل البلدان من يتعلم اللسان العربي ويبدأ ينقل معاني الإسلام وحقائق الدين إلى قومه وينتشر دين الله ﷻ في الآفاق وفي أرجاء المعمورة ، وهذا كله من شواهد الواقع على أن نبينا عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين .

ولم يُرسل عليه الصلاة والسلام للعرب خاصة أو لقومه خاصة بل أرسل للعالمين ، ولهذا جاء في صحيح مسلم أنه ﷺ قال : ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)).

وابن القيم رحمه الله تعالى يذكر مرّة أنه جمعه مجلس بنفرٍ من أهل الكتاب يقول : "قلت لهم : إنكم قد سببتم محمداً ﷺ سبة ما سبه بها أحد من العالمين . قالوا : وما ذاك ؟ قال : منذ ظهر ودينه في علو ، ولا يزال الله يؤيده ولا يزال كذا .. ويذكر من فضائله وخصائصه ويعدِّد من مناقبه عليه الصلاة والسلام ، ثم تقولون عنه إنه نبي كاذب !! وهذه سبة لله ربّ العالمين ما سبَّه بها أحد ، إذ كيف يكون نبي كاذب ولا يزال يؤيده ولا يزال دينه في ظهور ولا يزال في علو ولا يزال في تمكن ولا يزال أعوانه في تأييد !! فإما أن يكون الله عالما به أو ليس عالما به ، أو قادراً عليه أو ليس قادرا عليه ، فإن كان الله عالما به أليس قادرا عليه ؟ وإن كان الله ﷻ عالما به وقادرا عليه أليس قد قال الله : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [المعارج:٤٤-٤٦] فناقشهم رحمه الله تعالى حول هذا المعنى ، فقالوا : حاشا أن نقول أنه كاذب والعقلاء منّا أيضا يقولون إنه نبي صادق وليس بنبي كاذب ، ويقولون إن أتباعه سعداء ، يقول : فقلت لهم : إذا كان العقلاء منكم يقولون ذلك وأنتم أيضا تقولون حاشاه أن يكون كاذبا وأن أتباعه سعداء ، ما الذي يمنعكم أن تظفروا بهذه السعادة ؟! قالوا : ونحن نقول أيضاً أتباع موسى سعداء وأتباع عيسى سعداء . قال : إن كنتم تقولون إنه نبي صادق فإنه قد ثبت عنه أنه كفّر من لم يتبعه وقال : ((إنه لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا كان حقا على الله أن يدخله النار)) فإن كان ترون أنه صادق لزمكم إتباعه في هذا ، وإن اعتقدتم أنه ليس بصادق رجعتم إلى باطلكم السابق . فقالوا : حدثنا في غير هذا. يعني أغلق رحمه الله عليهم الأبواب وما أصبح لهم أي كلام يستطيعون التحدث به فقالوا "حدثنا في غير هذا" .

فالشاهد أن رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام هي للثقلين وللعالمين وبُعث عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين وبلَّغ عليه الصلاة والسلام البلاغ المبين ، فما ترك ﷺ خيراً إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذر منه صلوات الله وسلامه عليه .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

..*